

الأضداد في اللغة العربية

تعريف الأضداد :

عرّفها أبو الطيب اللغوي بقوله: «والأضداد جمع ضد، وضد كل شيء ما نأفاه، وليس كل ما خالف الشيء ضدّاً له، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليساً ضدّين، وإنما ضد القوة الضعف، وضد الجهل العلم». وعرّفها ابن فارس الرازي بقوله: «المتضادان: الشيئان لا يجوز اجتماعهما في وقت واحد كالليل والنهار». ويلحظ في التضاد ضرب من المشترك اللفظي الذي يتجلّى في احتواء اللفظة الواحدة على معنيين مشتركين في النطق ولكنهما متباينان في الدلالة، فإذا ما وصل هذا التباين حدّ التناقض والتعاكس عدّت اللفظة في الأضداد. واللغويون الذين سلكوا التضاد في جملة المشترك اللفظي نصّوا على أنه نوع أخصّ منه؛ من هؤلاء: سيبويه، وقُطْرُب، والسجستاني، والمبرد، وابن الأنباري، وغيرهم. ومن أمثلة التضاد: السُدُفة، تدل على الظلمة وعلى الضوء، والصريم: لليل والنهار، والصارخ: للمغيث والمستغيث، والناهل: للعطشان، وللذي شرب حتى رَوِيَ، وأمّ يقال: أمّ أمّ إذا كان عظيماً، وأمّ أمّ إذا كان صغيراً، والجُدُّ: البئر القليلة الماء، والكثيرة الماء.

وقد علّل الدارسون - قدماء ومحدثين - وجود هذه الظاهرة اللغوية، أو أسباب نشأتها بعوامل أهمها:

1 - اختلاف اللهجات من قبيلة إلى أخرى في تقدير الدلالة اللغوية وتحديدّها بدقة، وهو تعليل وجيه، إذ من غير المقبول أن يُسمّى القوم الذين يعيشون في بيئة واحدة الشيء باسم ذي معنى معيّن ثم يسموه بنقيضه. وقد أوضح ذلك صراحة ابن الأنباري حين قال: «إذا وقع الحرف (الكلمة) على معنيين متضادين، فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع». ولعلّ هذا الرأي من أكثر ما قيل في تعليل الأضداد سلامة بمعايير التحليل اللغوي القديمة والحديثة على السواء. وقد عزّزه ابن الأنباري بقوله أيضاً: «إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكن أحد المعنيين لحى من العرب، والمعنى الآخر لحى غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء».

2 - الخلط بين المعنيين بعدم مراعاة دقّة الدلالة اللغوية التي وضعت لكل منهما أصلاً، فمثّل هذا الاتساع يودّي إلى التداخل، ثم يفضي إلى التضاد، كلفظة الظنّ التي صارت تعني الشك واليقين، في حين كانت تعني إدراك الشيء أو علمه. وكلفظة الصريم، لليل والنهار، وأصلهما من الصرّم، أي القطع أو الانتهاء، فكُلّ منهما ينصرم عن صاحبه، ولذا لم يكن هذا عند بعضهم من الأضداد.

3 - التطور الدلالي الذي في ضوئه يمكن تعليل إطلاق معنى الطرب على الحزن

والفرح وسلوكه في الأضداد، في حين يرى ابن الأنباري أنه «ليس هو الفرح ولا الحزن، إنما هو خفة تلحق بالإنسان في وقت فرحه وحزنه». وقد يُلاحظ هذا - اليوم - في الحركات وضرب الراح بعضها ببعض وإطلاق النار في حالي الفرح والحزن مما يرجح أن هذا أصل المعنى، ثم بالتطور اللغوي خُصّص للدلالة على ضدين. وقل مثل ذلك في المأتم الذي يدل على الضدية في الحزن والفرح عند بعضهم، وإن كان يدل في الأصل على الجماعة، أو على جماعة النساء خاصة، في السراء والضرأ. أي إن المعنى العام القديم تطور إلى معنيين متضادين.

4 - نقل المعنى عمداً من الحقيقة أو أصل الوضع إلى المجاز بقصد التفاؤل، أو التهكم، وتجنباً لما يخلفه ذكر المعنى صراحةً من أثر في النفس، مما استدعى معاودة البحث عند العربي عن ألفاظ لا تُذكر بالتشاؤم أو بالكوارث، ثم شاعت المعاني الجديدة وصارت بقوة المعنى الأصل، نحو: «السليم» للديغ، و«البصير» للأعمى، و«المفازة» للمهلكة (البيداء)، و«القافلة» تفاؤلاً بقولها، أي رجوعها، وإن كانت ذاهبة. ونحو ذلك لفظة «التقريب» التي تُستعمل أصلاً لمدح الحي ويقابلها التأبين لمدح الميت، فهذه ذكرها ابن الأنباري وقطرب في معرض الذم، وتوجد في الأضداد بهذا المعنى التهكمي الجديد. وثمة من لا يعتد بهذا في الأضداد لأن مداره على نية المتكلم وحده، لا على الكلمة المفردة بصرف النظر عن دلالتها في التركيب.

5 - احتمال الصيغ الصرفية لمعنيين متضادين كأن تكون الصيغة بمعنى الفاعل والمفعول نحو: شكور، غفور بمعنى: شاكراً، غافراً، ورسول بمعنى: مُرسلاً. وكذلك صيغة فعيل الدالة على الفاعل في: سميع وعليم وقدير، وعلى المفعول في: كحيل، وطريد، وجريح، وصيغة فاعل بمعنى مفعول في مثل قوله تعالى: (فهو في عيشة راضية) (الحاقة 21) أي مرضية، ومثل: خائف، وعائد، وآمن، وكذا الصيغة الدالة على اسم الفاعل والمفعول معاً في مثل: المُحتلّ، والمختار، من مضعّف الثلاثي وأجوف الرباعي، فكل هذا يدرجونه في الأضداد شريطة ألا يدخل على الكلمة تغيير، أو يجري في تصريفها اختلاف.

6. نزوع الإنسان نحو التفاؤل والبشر، فكما يقال للمبصر (البصير) فهي تقال أيضاً للأعمى تفاؤلاً وأملاً. ولفظة (شَوْهَاء) صفةً للمرأة الجميلة، وتطلق

على المرأة القبيحة أيضاً. (لعلّها تصبح جميلة ذات يوم)!

وكلمة (وَشَل) تقال للماء الكثير، ورغبةً في الاستبشار والفأل الحسن، فهي تقال أيضاً للماء القليل لعلّه بأمر الله يصبح كثيراً.

7 . الخوف من العين والحسد فمفردة (شَوْهَاء) تطلق على المرأة الجميلة، ولكيلا تحسد، أصبحت الكلمة تطلق على المرأة القبيحة أيضاً.

8. تغير وتحول دلالة اللفظ من العموم إلى الخصوص مثل لفظة (طَرَب) التي تعني (الخَفَّة) تصيب الرجل لشدة الفرح أو الحزن، ثم خصصت

بالفرح.

وأنكر الأضداد بعض اللغويين كابن درستويه، فقد نقل عنه السيوطي قوله: «النَّوء: الارتفاع بمشقة وثقل، ومنه قيل للكوكب: قد ناء، إذا طلع. وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً، وأنه من الأضداد، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا الذي عملناه في إبطال الأضداد». وممن قال بوجود الأضداد ابن فارس وقد ردّ على القائلين بإبطالها فقال: «.. وأنكر ناس هذا المذهب وأنّ العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده، وهذا ليس بشيء، وذلك أن الذين رَووا أن العرب تُسمِّي السيف مهنداً والفرس طِرْفاً هم الذين رَووا أن العرب تُسمِّي المتضادين باسم واحد» وقال: «وقد جرّدنا في هذا كتاباً ذكرنا فيه ما احتجوا به وذكرنا ردّ ذلك ونقضه».

وأشهر من ألف في الأضداد محمد بن المستنير الملقب بقطرُب (206هـ)، والأصمعي (215هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (222هـ) وأبو محمد عبد الله الثَّوْزي (بين 230 و 250 هـ)، وابن السِّكِّيت (244هـ)، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (248هـ)، وأبو بكر بن القاسم الأنباري (328هـ)، وأبو الطيب اللغوي (359هـ)، وأبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان (569هـ)، وأبو الفضائل الحسن ابن محمد الصَّغاني (650هـ). وتحسن الإشارة هنا إلى أن عدداً من اللغويين السابقين لهؤلاء قد قرن ذكرهم بالأضداد في ألفاظ رويت عنهم كأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل، والكسائي، والشيباني.. وإن لم يصطلحوا على التسمية، أو يؤلفوا في الأضداد.

ومن أشهر ألفاظ الأضداد في اللغة العربية الفعل “بان” الذي يعني “ظهر” ويعني “ابتعد”، فنقول “بان البدرُ بياناً” إذا ظهر، و”بانَت السيارةُ بَيَّناً” إذا ابتعدت حتى اختفت، ومنه قول الشاعر: “بانَت سعادُ قلبي اليومَ مَتَبُولٌ”، وقول الشاعر: “بِنْتُم وبِنّا فما ابتَلَّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جَفَّت مَاقِينا”.

ومنها كلمة “عنتره” التي تعني “الشجاع شديد الوطأة على الأعداء”، وتعني “الدُّباب الذي يفرّ إذا أحسَّ أي خطر”.

ومنها كلمة “بهلول” التي كانت تعني “السيد العظيم الذي يلجأ إليه أهله” فأصبحت تعني “الأبله الذي يسخر الناس منه في الشوارع”، وهو تطوّر دلالي حدث للكلمة بعد أن كان المُلوكُ والسادة يُخلَعون في عصر المماليك، وتُفقأ أعينُهم وتُجَدَع أنوفهم، فيسيرون في الشوارع عُرضَةً لسخرية الناس.

ومنها كلمة “بهلوان” التي كانت تعني الفارس الماهر الذي يتقن فنون الكرّ والفرّ والقفز والمروق من بين السهام والسيوف والرماح، إلى آخر مهارات الفرسان، وبعد

استعمال المدافع والبنادق في الحروب أصبحت مهاراته غير ذات نفع، ومع الوقت أصبحت تُطْلَق على اللاعبين في الملاهي والسيرك وما أشبه.

الصريم: يقال لليل والنهار، لأن كليهما ينصرم (يخرج) من الآخر.

الجون: للظلمة والنور، وللأبيض والأسود يقول الشاعر: "تَقُولُ خَلِيلَاتِي لَمَّا رَأَتْني شَرِيحاً بَيْنَ مُبْيَضٍّ وَجَوْنٍ..."

السجود: للانحناء والانتصاب.

الرجاء: يستعمل بمعنى الشك، واليقين.

اشترى: أي أعطى الثمن وقبضه.

عسّس الليل: أي أقبل وأدبر.

فزع: أي أغاث، واستغاث.

قَسَطَ: أي عدل وظلم.

وَلَّى: أي أدبر، وأقبل.

الشَرْف: الارتفاع والانحدار.

الصَّارِخ: المستغيث، والمغيث.

الشَّعْب: الافتراق، والاجتماع.

الناهل: العطشان وكذلك الذي قد شرب حتى ارتوى.

الظن: الشك واليقين.

بِعْتُهُ: اشتريته وبعته.

الْجَلَل: تقال للأمر وللشيء الصغير، وتقال أيضاً للأمر والشيء العظيم.

الْغَرِيم هو المطلوب بالدين، والغريم هو الطالب دينه.

المأتم هو الاجتماع في فرح أو حزن.

الهاجد هو المصلي بالليل والهاجد هو النائم.

